

فكما يأخذ الشاعر من غيره، يأخذ من نفسه، وكما يغير في المأخوذ من السابقين، يغير أيضاً فيما يكرره من شعره. وخلاصة ما عرضه ابن طباطبا في قضية السرقات أنه يرى القدماء وقد استنفدوا المعاني ولم يبقوا للمحدثين سوى سُور لا يفى بما تحيى به قرائح الشعراء المحدثين - لذلك عظمت محنة هؤلاء في المعاني وهنوا ما أجبرهم على تناول معاني السابقين، إما بالإغارة والسرقة، وإما بالأخذ المعتمد على إلف الحيلة وتدقيق النظر في استعمال المعاني المأخوذة حتى تخفى على نقادها، وينفرد الشاعر الآخذ بشهرتها، وهو ما ارتضاه ابن طباطبا وحذر من السرقة.

ثم وجه ابن طباطبا الشعراء إلى كتابه «تهذيب الطبع»، ليتمكنوا لأنفسهم من تعرف مناهج السابقين التي يعليها صاحب العيار دون أن يغمط المحدثين حقهم في بدائعهم، فتسلم لهم معانيهم على درب مشهود، وتلك هي الرواية التي أوصى بها النقدة لمن رام القدوة عند الاحتذاء.

كما جعل ابن طباطبا العقد أخذاً مستحسناً، ولم يعدّه سرقة، وكل ما اشترطه في ذلك كله أن يطبع المأخوذ بطابع الآخذ، ويبدو أحسن مما كان من قبل.

الموضوع السادس: الوحدة في القصيدة؛

خاض كثير من النقاد والمؤرخين في قضية الوحدة في القصيدة، وكان شاغلهم فيما تناولوه قيام القصيدة على وحدة البيت، يقول ابن رشيق (ت ٤٦٣هـ) في كتابه «العمدة»: «وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائماً بنفسه، لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير». (١) ثم عقد ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧هـ) فصلاً للتضمنين عارض فيه رأى ابن رشيق إذ قال: «وأما المعيب عند قوم فهو تضمين الإسناد، وذلك يقع في بيتين من الشعر ... على أن يكون الأول منهما مسنداً إلى الثاني، فلا يقوم الأول

(١) العمدة ١/ ٢٣٢.

بنفسه، ولا يتم معناه إلا بالثاني، وهذا معدود من عيوب الشعر. وهو عندى غير معيب، لأنه إذا كان سبب عيبه أن يعلّق البيت الأول على الثانى فليس ذلك بسبب يوجب عيباً، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر فى تعلق أحدهما بالآخر وبين الفقرتين من الكلام المنشور فى تعلق إحداهما بالآخر^(١).

فالرأيان متعارضان حول استقلال بيت الشعر، وهو تعارض التقطه من نظر فى وحدة القصيدة، وأسس عليه دعواه فى تباعد ما بين أبيات القصيدة الواحدة، أو استقلال الأبيات حتى إن البيت لِيُتَزَع من مكانه ويُمَثَل به بلا خلل يلحق بما قبله وما بعده^(٢). وتلك قضية معلنة بين النقدة والبلاغيين فى مباحثهم، وما تقدم يُجرىء فيما نحن بصده.

ولعل ما رآه ابن طباطبا العلوى فى وحدة القصيدة العربية معدود من فصل القول الذى لا مزيد عليه عند التأمل، وسداد الفهم، وعدم المغالاة فى تأويل النصوص.

فالوحدة التى قصدتها ابن طباطبا هى الوحدة الفنية ووحدة الغرض، أما الوحدة العضوية التى دعا إليها ووجه الشعراء نحوها، فأمر أدق مذهباً مما رآه من بعده.

فالوحدة الفنية تعنى وحدة الأسلوب، وتلاؤم أجزائه، واستواءها، تعنى بناء القصيدة على نحو متناسق لا اضطراب فيه، ولا تباين بين الألفاظ والمعاني، أو بين الألفاظ بعضها بعضاً، وكذا المعانى تجرى على الاستواء والتناسب والاطراد، يقول ابن طباطبا: «فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة مستحسنة.. فيحسنه جسماً ويحققه روحاً، أى يتقنه لفظاً ويبدعه معنى، ويجتنب إخراجهم على ضد هذه الصفة فيكسوها قبحاً، ويرزهم مسخاً، بل

(١) المثل السائر ٣/ ٢٠١ .

(٢) انظر ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢/ ١٩١ الأبيات التى لا مثل لها.

يسوى أعضائه وزنا، ويعدل أجزائه تأليفاً، ويحسن صورته إصابة، ويكثر رونقه اختصاراً، ويكرم عنصره صدقاً، ويفيده القبول رقة، ويحصنه جزالة، ويدنيه سلاسة، وينأى به إعجازاً (العيار ٢٠٣) فهذا سبيل الأسلوب الشعري المتقن، وهو قائم على الاعتدال والانتلاف، بالملائمة بين معاني الشعر ومبانيه، أو بين ألفاظه ومعانيه، وهو مقصوده من الجسم والروح اللذين بهما يكون البناء الفني للقصيدة. ويؤكد هذا في موضع آخر من كتابه فيرى أن «الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولّد، وإذا أتى بلفظه غريبة أتبعها أخواتها. وكذلك إذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الوحشية النافرة الصعبة القياد، ويقف على مراتب القول والوصف في فن بعد فن، ويتعمد الصدق والوفق في تشبيهاته وحكاياته» (العيار ٨ - ٩) وليس بعد هذا القول ما يدل على قصد الوحدة الفنية في بناء الشعر أوضح مما قاله ابن طباطبا في استواء المعاني، وتآلف الألفاظ، وعدم الخلط بين الأساليب بما ينفر بعضها من بعضها الآخر.

أما وحدة الغرض فتعني حسن التخلص من غرض إلى غرض آخر في القصيدة الواحدة، حتى تبدو تلك الأغراض على تنوعها موصولة بما بينها من وشائج معنوية ينسجها الشاعر وشيا متكثر الألوان بلا تنافر بينها. والشاعر المفلق هو الذي يحتال للوصل بين أجزاء القصيدة وصلاً دقيقاً يبعد معه الخلط والقطع، ويُفرز من نفسه وروحه الشاعرة مادة لاحمة رابطة برباط نفسى فني، يجعلها وهي متفرقة لا أثر للانفراق فيها.

ويرى ابن طباطبا أن الشعراء المحدثين أشد فطنة وأدق ملاحظة لوحدة الغرض، وأنهم حازوا من الإبداع في هذه ما تفوقوا به على القدماء فيقول: «ومن الأبيات التي تخلص بها قائلوها إلى المعاني التي أرادوها من مديح، أو هجاء، أو افتخار، أو غير ذلك، ولَطَفُوا في صلة ما بعدها بها فصارت غير منقطعة عنها - ما أبدعه المحدثون من الشعراء دون من تقدمهم، لأن مذهب

الأوائل فى ذلك مذهب واحد وهو قولهم عند وصف الفيافى وقطعها بسير
الفيافى، وحكاية ما عانوا فى أسفارهم: إنا نجشمننا ذلك إلى فلان، يَغْنُون
الممدوح، كقول الأعشى:

إلى هَوْدَةَ الوَهَّابِ أَزْجِي مَطِيَّتِي أَرْجِي عَطَاءَ صَالِحٍ مِنْ نَوَالِكَا

... أو يُسْتَأْنَفُ الكلام بعد انقضاء التشبيب، ووصف الفيافى والنوق
وغيرها، فيقطع عما قبله، ويبتدأ بمعنى المديح ... فسلك المحدثون غير هذه
السيبل، ولَطَفُوا القول فى معنى التخلص إلى المعانى التى أرادوها، فمن ذلك
قول منصور النمرى:

إذا امتنع المَقَالُ عليك فامدح أمير المؤمنين تجدُ مقالاً
فتى ما إن تزال به رِكابٌ وضغنَ مدائحها وحملنَ مالا
وقوله:

أَنْضَيْتُهَا بعد ما طال الهَبَابُ بها تَوَهُمٌ هَوْدَةَ لا. نكسا ولا ورعا
يا هَوْدُ إِنَّكَ مِنْ قَوْمٍ أُولَى حَسَبٍ لا يَفْشَلُونَ إذا ما آنَسُوا فَزَعَا

(العيار ١٨٤)

وفى وحدة الغرض التى هى حسن التخلص. يقول أبو طاهر محمد بن
حيدر البغدادي (ت ٥١٧هـ) فى كتابه «قانون البلاغة»: «وأما براغة التخلص
فإن من حكم التشبيب: أن يكون ممتزجاً بما بعده من مدح أو هجاء وغيرهما،
وغير منفصل منه، فإن القصيدة مثلها كمثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه
ببعض ... وحذائق الشعراء لا يفصلون بينهما، بل يصلون الأول بالآخر حتى
تراه كالرسالة والخطبة لا ينقطع جزء من جزء كقول مُسْلِم:

أجْدَكَ هل تدرين أن رُبَّ ليلة كأن دُجَاهَا من قرونك تُنَشَّرُ
نَصَبَتْ لَهَا حتى نَجَلَتْ بِفُرَّةٍ كفرة يحيى حين يُذكر جَعْفَرُ^(١)

(١) قانون البلاغة: ١٢٠.

فامتزاج التشبيب بما بعده، وتشبيه ذلك بالرسالة والخطبة فى تواصل الأجزاء، واتحاد الأغراض بلا فواصل هو ما عناه ابن طباطبا فى التخلص المؤدى إلى وحدة الغرض فى القصيدة.

وقد سبق ابن قتيبة إلى شرح هذه الوحدة فى كتابه «الشعر والشعراء» على نحو يعلن بقوة عن القصد إلى وحدة الغرض من طريق الربط بين الأغراض التى ظاهرها اختلاف وحقيقتها اتحاد وتكامل معنوى فنيّ. وحاصل ما رواه ابن قتيبة أن البدء بذكر الديار والدّمن سبب لذكر أهلها الطاعنين عنها، وهو ما يوصل إلى النسيب، وفيه يشكو الشاعر الوجد وألم الفراق، فيُميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه، فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه عَقَبَ بإيجاب الحقوق، فيرحل فى شعره، ويشكو النَّصَبَ والسهر، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير، بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة وهزّه للسّماح... ثم قرر أن الشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدّل بين هذه الأقسام^(١).

لذلك سمى البلاغيون والنقاد خروج الشاعر من غرض إلى غرض آخر بغير اتصال يربط السابق باللاحق ويحقق وحدة الغرض - طفرا وانقطاعاً، نحو قول البحتري:

لولا الرجاء لَمْتُ من ألم الهوى لكنّ قلبى بالرجاء مُوَكَّلُ
إن الرعية لم تزل فى سيرة عمرية مُذْ سَاسَهَا المتوكل^(٢)

والوحدة العضوية عند ابن طباطبا هى جماع الصّدق الفنّى فى القصيدة لتعلقها بالتآلف النفسى عند الشاعر، وإذا كان حسن التخلص بين الأغراض محققاً وحدة الغرض، فإن إحكام الترابط بين أبيات القصيدة، ومراعاة حسن

(١) الشعراء والشعراء: ١٨ .

(٢) انظر: بدوى طبانة: معجم البلاغة العربية ١/ ٤٧٢ .

تجاورها على نحو من الملاءمة بين معانيها - يحقق الوحدة العضوية. يقول ابن طباطبا: «وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبجه، فيلائم بينها لتنظم له معانيها ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلاً من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فينسى السامع المعنى الذى يسوق القول له. كما أنه يحترز من ذلك فى كل بيت، فلا يباعد كلمة عن أختها، ولا يحجز بينها وبين تمامها بحشو يشينها. ويتفقد كل مصراع هل يشاكل ما قبله، فربما اتفق للشاعر بيتان يضع مصراع كل واحد منهما فى موضع الآخر. فلا يتنبه على ذلك إلا من دق نظره، ولطف فهمه». (العيار ٢٠٩) وهنا نجد ابن طباطبا يقف عند الأبيات فى حسن تجاورها، وينبه على الحشو الذى يقطع المعانى بما ليس من جنسها، ويلفت نظر الشاعر إلى مصراعى البيت، حتى يكون كل منهما لفقاً لقرينه. «وكان ابن طباطبا تنبه إلى ما رده - ولا يزال يردده - النقد فى عصرنا من فكرة الوحدة العضوية فى القصيدة، بحيث تصبح عملاً محكماً إحكاماً، فلا تخلخل بين المعانى المتعاقبة، ولا محرات ولا خنادق تفصل بينها»^(١).

ثم يزيدنا ابن طباطبا توضيحاً لرأيه فى الوحدة العضوية، ووحدة النسق الشعري، وهما متكاملان أو متداخلان فى نصه الذى يقول فيه: «وأحسن الشعر ما ينتظم فيه القول انتظاماً يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإن قُدِّم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقص تأليفها. فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها - لم يحسن نظمه بل يجب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها، نسجاً، وحُسناً، وفصاحة، وجزالة ألفاظ، ودقة معان، وصواب تأليف. ويكون خروج الشاعر من كل معنى يضيفه إلى غيره من المعانى خروجاً لطيفاً... حتى تخرج

(١) شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ: ١٢٧.

القصيدة كأنها مُفرغة إفراغاً... لا تناقض في معانيها، ولا وهَي في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، تقتضى كل كلمة ما بعدها، ويكون ما بعدها متعلقاً بها، مفتقراً إليها. فإذا كان الشعر على هذا النمثيل سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهى إليها رواية، وربما سبق إلى إتمام مصراع منه اضطراراً يوجب تأسيس الشعر كقول البحرى:

سَلَبُوا الْبَيْضَ بَرَّهَا فَأَقَامُوا بَطَّبَاها التَّأْوِيلَ وَالتَّنْزِيلَ
فَإِذَا حَارَبُوا أَذَلُّوا عَزِيزًا

يقتضى هذا المصراع أن يكون تمامه:

..... وإذا سألوا أعزُّوا ذليلاً (العيار ٢١٣ - ٢١٤)

وإن هذا النص الرائع معدود من النماذج النقدية الرائقة، المتميزة بعمق الرؤى التى لا تتوفر إلا لشاعر مرهف الإحساس، وهو ما يفرق بين نقد الأدباء ونقد العلماء «ولعل من الغريب حقاً أن أصحاب النقد والبلاغة، بعد ابن طباطبا لم يتوسعوا فى هذا الموضوع، بل لقد كادوا يجمعون على أن تعلق بيت بما قبله من حيث تمام الفكرة والتعبير يُعد عيباً، وسموه منذ عصر الجاحظ باسم «التضمين»... وبذلك ظلت تعم فكرة وحدة البيت، وظلت القصيدة تتركب من وحدات منفصلة»^(١) فى الرأى النقدي، وكأن ما قاله ابن طباطبا ذهب صيحة فى واد، أو لم يجد الكتاب طريقه إلى التقاد بما يُشهر هذا الرأى ويذيعه خاصة وابن طباطبا لم يفارق أصبهان قط على ما ذكره ياقوت فى معجمه، بل إن أغلب المصادر الموسوعية كتاريخ بغداد وتاريخ دمشق مثلاً أغفلت ذكره لعدم دخوله هذين البلدين، ثم اضطربت المصادر فى معرفته كما فى وفيات الأعيان لابن خلكان فى ترجمة أبى القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا حيث

(١) شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ١٢٧، وانظر: أنس داود: دراسات نقدية، ١٨٦

قال: «ولا أدري من هذا أبو الحسن، ولا وجه النسبة بينه وبين أبي القاسم المذكور، والله أعلم»^(١) فلعل الرجل وُجد مغموراً ومعه مصنفه.

الوحدة العضوية بين ابن طباطبا وأرسطو:

لقد سبق رأى ابن طباطبا فى الوحدة العضوية برأى لأرسطو لخصه ابن سينا فى الفن التاسع من الجملة الأولى من كتاب «الشفاء»، بالفصل الخامس الذى عنوانه «فى حسن ترتيب الشعر، وخصوصاً الطراغوديا، وفى أجزاء الكلام المخيل الخرافى فى طراغوديا»، وفيه يقول: «وكلّ تمام وكلّ فله مبدأ، ووسط، وآخر. والوسط مع قَبْل، والمبدأ قبل وليس يجب أن يكون مع، والآخر مع وليس يجب أن يكون قبل شيء»، والجزء الفاضل هو الوسط»^(٢) فالطراغوديا التى هى التراجيديا أو المأساة يراها تتألف من مقدمة ووسط ونهاية، وبدهى فإن المقدمة تكون وليس هناك شيء قبلها، وتقع النهاية وليس هناك شيء بعدها، والوسط له ما قبله وما بعده، هكذا يعبر أرسطو عن تكوين التراجيديا، ثم يقول: «فيجب أن يكون تقويم الشعر على هذه الصفة، أن يكون مرتباً فيه أول ووسط وآخر، وأن يكون الجزء الأفضل فى الوسط، وأن تكون المقادير معتدلة ... ويكون بحيث لو نزع منه جزء واحد فسد وانتقض، فإن الشيء الذى حقيقته الترتيب إذا زال عنه الترتيب لم يفعل فعله، وذلك لأنه إنما يفعل لأنه كل، ويكون الكل شيئاً محفوظاً بالأجزاء، ولا يكون كلا عندما لا يكون الجزء الذى للكل»^(٣). وبغض النظر عن رداءة الأسلوب، فالتراجيديا مقصد أرسطو وموضوع وحدته، وقد عمم ذلك على الأشعار القصصية. وهو فى كل ما قاله يتحدث عن الشعر التمثيلى سواء كان مسرحياً أو قصصياً أو ملحماً أى الشعر الموضوعي، ولم يتعرض للشعر الغنائى أو الذاتى.

(١) وفيات الأعيان: ١ / ١٣٠ .

(٢) أرسطو طاليس: فن الشعر ١٨١ .

(٣) أرسطو طاليس: فن الشعر ١٨٣ .

وفى الفصل السادس الذى تحدث فيه عن التراجيديا بحسب الترتيب والإنشاد يقول: «قد كان عندهم لكل قصيدة من طراغوديا أجزاء تترتب عليه فى ابتدائها ووسطها وانتهائها. وكان يُنشَدُ بالغناء الرقصى، ويتولاه عدّة، فكان جزؤه الذى يقوم مقام التشبيب فى شعر العرب يسمى «مدخلا»، ثم يليه جزء هناك يتبدى به معه الرقص يسمى «مخرج الرقص». ثم جزء آخر يسمى «مجاز» هؤلاء. وهذا كله كالصدر فى الخطبة، ثم يشرعون فيما يجرى مجرى الاقتصاد والتصديق فى الخطابة فيسمى التقييم»^(١) وهو فى هذا الجزء كله يتحدث عن أجزاء التراجيديا بحسب الترتيب والأداء والإنشاد، والمراد بكلمة قصيدة هنا الجزء الشعرى من التراجيديا الذى يُلحَن ويغنى ويؤديه منشدون وليس المراد القصيدة الغنائية حسب ماتوهم بعض النقاد العرب. ومن هذا كله نرى أن أرسطو لم يتعرض للشعر الغنائى فى هذه التقسيمات، ولم يلزمه بالوحدة العضوية بمعنى وحدة الموضوع، وكان كل اهتمامه موجهاً أساساً إلى الشعر الشائع عند اليونان وهو الشعر التمثيلى ملحمياً كان أو مسرحياً أو قصصياً^(٢).

ولم يطف بذهن ابن طباطبا أن يدعو الشاعر إلى التزام الوحدة العضوية بمعنى الوحدة الموضوعية التى قال بها أرسطو، بل دعا الشاعر إلى إحكام نسج القصيدة والتوفيق بين معانيها وألفاظها وقوافيها، والتلطف فى التخلص من معنى إلى آخر يلائمه حتى تخرج القصيدة كالكلمة الواحدة، وتلك هى الوحدة العضوية بمعنى التلاحم بين أجزاء القصيدة فى إطار من التآلف النفسى بين هذه الأجزاء، وهو ما شرحه ابن قتيبة فى مقدمة كتابه «الشعر والشعراء» بصورة جلية واضحة للعلل.

وما على الشاعر الغنائى من بأس أن يصف - وهو يتغزل - الليل وسكونه، والأفق وصفاءه، والقمر وبهجته، وهو لم ينصرف عن الغزل ولم يبعد عنه، وما عليه أيضاً من بأس أن يصف العيون النجل، والوجوه القمر وهو فى هذا

(١) أرسطو طاليس: فن الشعر، ١٨٦.

(٢) انظر عيار الشعر: سعد ظلام ٥٦ وما بعدها.

السكون الجميل الملهم. ولا نرميه فى فنه بالتفكك، ولا فى شعره بعدم التلاحم، لأن العواطف الإنسانية لها مساربها المتشابكة، الظاهرة والخفية، والشعر الغنائى خارج عن نطاق الموضوعية الدرامية فى الملاحم والمسرحيات التى تُوجب أن يكون للشيء أول ووسط ونهاية، بل ينبغى ألا نقيد الشاعر الغنائى بغير الائتلاف النفسى والترابط المعنوى بين أجزاء القصيدة، وهذا موافق لما قصده الجاحظ بقوله: «وأجود الشعر ما رأيتُه متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً، وسُبِكَ سبكاً واحداً، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان»^(١)، وعلق على قول أبى البيداء الرياحي:

وشعر كَبَعْرِ الكَبشِ فَرَّقَ بينه لسانُ دَعَىٰ فى القَرِيضِ دَخِيل

بقوله: «فإنما ذهب إلى أن بعُر الكَبش يقع متفرقاً غير مؤتلف ولا متجاور، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة مُلَسّاً وَلِيَنَّةَ المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مُسْتَكْرَهَةً ... حتى كان البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد»^(٢) فالائتلاف مرعى، والتلاحم عام فى القصيدة والبيت والكلمة، ولا قَوام لشعر جيد إلا بهما.

هذه هى الوحدة العضوية التى أرادها ابن طباطبا وشرحها من سبقوه على أنها التلاحم والتآلف المعنوى والنفسى بين أجزاء القصيدة، وليست وحدة الموضوع التى أرادها أرسطو فى الطراغوديا (المأساة).

وكذلك فليس للنقد الحديث فضل السبق إلى الوحدة العضوية، وليس عبد الرحمن شكرى - من جماعة الديوان - أول من تحدث عن الوحدة العضوية فى القصيدة الشعرية، ولا أول من ألح على تحقيقها فى العمل الأدبي^(٣).

(١) البيان والتبيين ١/ ٦٧ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٦٦ - ٦٧ .

(٣) إبراهيم الحاوي: حركة النقد الحديث والمعاصر ٦٩ .